ثم دخلت سنة ست عشرة وأربعمائة

ذكر فتح سومنات

في هذه السنة فتح يمين الدولة في بلاد الهند عدّة حصون ومدن، وأخذ الصنم المعروف: بسومنات، وهذا الصنم كان أعظم أصنام الهند، وهم يحجّون إليه كل ليلة خسوف، فيجتمع عنده ما ينيّف على مائة ألف إنسان، وتزعم الهنود أن الأرواح إذا فارقت الأجساد، اجتمعت إليه على مذهب التناسخ، فينشئها فيمن شاء، وأنّ المد والجزر الذي عنده إنّما هو عبادة البحر على قدر استطاعته، وكانوا يحملون إليه كل علق نفيس، ويعطون سدنته كل مال جزيل، وله من الموقوف ما يزيد على عشرة آلاف قرية.

وقد اجتمع في البيت الذي هو فيه من نفيس الجوهر ما لا يحصى قيمته، ولأهل الهند نهر كبير، يسمى: كنك، يعظمونه غاية التعظيم، ويلقون فيه عظام من يموت من كبرائهم، ويعتقدون أنها تساق إلى جنة النعيم، وبين هذا النهر وبين سومنات نحو مائتي فرسخ، وكان يحمل من مائة كل يوم إلى سومنات ما يغسل به، ويكون عنده من البرهميين كل يوم ألف رجل لعبادته وتقديم الوفود إليه، وثلثمائة رجل يحلقون رؤوس زوّاره ولحاهم، وثلثمائة رجل وخمسمائة أمة يغنون ويرقصون على باب الصنم، ولكل واحد من هؤلاء شيء معلوم كل يوم[1].

وكان يمين الدولة كلما فتح من الهند فتحاً، وكسر صنماً، يقول الهنود: إنّ هذه الأصنام قد سخط عليها سومنات، ولو أنه راض عنها، لأهلك من قصدها بسوء، فلمّا بلغ ذلك يمين الدولة، عزم على غزوه وإهلاكه ظناً منه أن الهنود إذا فقدوه، ورأوا كذب ادّعائهم الباطل، دخلوا في الإسلام، فاستخار الله تعالى، وسار عن غزنة عاشر شعبان من هذه السنة، في ثلاثين ألف فارس من عساكره سوى المتطوّعة، وسلك سبيل الملّتان،

---

(١) ذكره ابن خلدون في «تاريخه» (٤/ ٤٤٨)، وذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٢/ ٤٦٣)، وذكره ابن خلكان في «وفيات الأعيان» (٦/ ١٧٨، ١٧٩).

فوصلها منتصف شهر رمضان، وفي طريقه إلى الهند برية قفر، لا ساكن فيها، ولا ماء، ولا ميرة، فتجهّز هو وعسكره على قدرها، ثم زاد بعد الحاجة عشرين ألف جمل تحمل الماء والميرة، وقصد أنهلوارة، فلما قطع المفازة، رأى في طرفها حصوناً مشحونة بالرجال، وعندها آبار قد غوّروها ليتعذر عليه حصرها، فيسّر الله تعالى فتحها عند قربه منها بالرعب الذي قذفه في قلوبهم، وتسلّمها، وقتل سكانها، وأهلك أوثانها، وامتاروا منها الماء وما يحتاجون إليه.

وسار إلى أنهلوارة، فوصلها مستهل ذي القعدة، فرأى صاحبها ـ المدعو: بهيم ـ قد أجفل عنها وتركها، وأمعن في الهرب، وقصد حصناً له يحتمي به، فاستولى يمين الدولة على المدينة، وسار إلى سومنات، فلقي في طريقه عدة حصون، فيها كثير من الأوثان شبه الحجاب والنقباء لسومنات، على ما سوّل لهم الشيطان، فقاتل من بها، وفتحها وخرّبها، وكسر أصنامها[1].

وسار إلى سومنات في مفازة قفرة قليلة الماء، فلقي فيها عشرين ألف مقاتل من سكانها لم يدينوا للملك، فأرسل إليهم السرايا، فقاتلوهم، فهزموهم وغنموا مالهم، وامتاروا من عندهم، وساروا حتى بلغوا دبولوارة ـ وهي على مرحلتين من سومنات ـ وقد ثبت أهلها له، ظناً منهم أن سومنات يمنعهم ويدفع/ عنهم، فاستولى عليها، وقتل رجالها، وغنم أموالها. ج٧/٣٢٠/ط

وسار عنها إلى سومنات[2]، فوصلها يوم الخميس، منتصف ذي القعدة، فرأى حصناً حصيناً، مبنياً على ساحل البحر، بحيث تبلغه أمواجه، وأهله على الأسوار يتفرجون على المسلمين، واثقين أن معبودهم يقطع دابرهم ويهلكهم، فلما كان الغد ـ وهو الجمعة ـ زحف وقاتل من به، فرأى الهنود من المسلمين قتالاً لم يعهدوا مثله، ففارقوا السور، فنصب المسلمون عليه السلاليم، وصعدوا إليه، وأعلنوا بكلمة الإخلاص، وأظهروا شعار الإسلام، فحينئذٍ اشتد القتال، وعظم الخطب، وتقدّم جماعة الهنود إلى سومنات، فعفّروا له خدودهم، وسألوه النصر، وأدركهم الليل، فكفّ بعضهم عن بعض.

فلما كان الغد، بكّر المسلمون إليهم وقاتلوهم، فأكثروا في الهنود القتل، وأجلوهم

(١) ذكره ابن خلدون في «تاريخه» (٤/ ٤٤٩).

(٢) سومنات: مدينة ساحلية فيها علماء الهنود وعبّادهم.

عن المدينة إلى بيت صنمهم سومنات، فقاتلوا على بابه أشد قتال، وكان الفريق منهم بعد الفريق يدخل إلى سومنات، فيعتنقونه ويبكون، ويتضرّعون إليه، ويخرجون فيقاتلون إلى أن يقتلوا، حتى كاد الفناء يستوعبهم، فبقي منهم القليل، فدخلوا البحر إلى مركبين لهم لينجوا فيهما، فأدركهم المسلمون فقتلوا بعضاً وغرق بعض.

وأما البيت الذي فيه سومنات، فهو مبني على ست وخمسين سارية من الساج المصفّح بالرصاص، وسومنات من حجر طوله خمسة أذرع: ثلاثة مدوّرة ظاهرة، وذراعان في البناء، وليس بصورة مصوّرة، فأخذه يمين الدولة فكسره، وأحرق بعضه، وأخذ بعضه معه إلى غزنة، فجعله عتبة الجامع(١).

وكان بيت الصنم مظلماً، وإنما الضوء الذي عنده من قناديل الجوهر الفائق، وكان عنده سلسلة ذهب فيها جرس، وزنها مائتا من، كلما مضى طائفة معلومة من الليل، حركت السلسلة فيصوّت الجرس، فيقوم طائفة من البرهميين إلى عبادتهم، وعنده خزانة فيها عدّة من الأصنام الذهبيّة والفضيّة، وعليها الستور المعلقة المرصّعة بالجوهر، كل واحد منها منسوب إلى عظيم من عظمائهم، وقيمة ما في البيوت يزيد على عشرين ألف ألف دينار، فأخذ الجميع، وكانت عدة القتلى تزيد على خمسين ألف قتيل.

ثم إن يمين الدولة ورد عليه الخبر أن بهيم صاحب أنهلوارة قد قصد قلعة تسمى: كندهة في البحر، بينها وبين البر من جهة سومنات أربعون فرسخاً، فسار إليها يمين الدولة من سومنات، فلمّا حاذى القلعة، رأى رجلين من الصيّادين، فسألهما عن خوض البحر هناك، فعرفاه أنه يمكن خوضه، لكن إن تحرك الهواء يسيراً، غرق من فيه، فاستخار الله تعالى، وخاضه هو ومن معه، فخرجوا سالمين، فرأوا بهيم وقد فارق قلعته وأخلاها، فعاد عنها، وقصد المنصورة، وكان صاحبها قد ارتدّ عن الإسلام، فلما بلغه خبر مجيء يمين الدولة، فارقها واحتمى بغياض أشبة، فقصده يمين الدولة من موضعين، فأحاط به وبمن معه، فقتلوا أكثرهم، وغرق منهم كثير، ولم ينج منهم إلا القليل، ثم سار إلى بهاطية، فأطاعه أهلها، ودانوا له، فرحل إلى غزنة، فوصلها عاشر صفر من سنة سبع عشرة وأربعمائة(٢)/ . ج٧/٣٢١ط

(١) ذكره ابن الوردي في «تاريخه» (١/ ٣٢٦).

(٢) ذكره ابن خلدون في «تاريخه» (٤/ ٤٤٩)، وذكره النويري في «نهاية الأرب» (٢٦/ ٦١ ـ ٦٤)، وذكره البيهقي في «تاريخ بيهق» (٢٢٧).

ذكر وفاة مشرف الدولة وملك أخيه جلال الدولة

في هذه السنة، في ربيع الأول، توفي الملك مشرف الدولة أبو علي بن بهاء الدولة بمرض حاد، وعمره ثلاث وعشرون سنة وثلاثة أشهر، وملكه خمس سنين وخمسة وعشرون يوماً، وكان كثير الخير، قليل الشر، عادلاً، حسن السيرة[١].

وكانت والدته في الحياة، وتوفيت سنة خمس وعشرين، ولما توفي مشرف الدولة خطب ببغداد ـ بعد موته ـ لأخيه أبي طاهر جلال الدولة، وهو بالبصرة، وطالب إلى بغداد، فلم يصعد إليها.

وإنّما بلغ إلى واسط، وأقام بها، ثم عاد إلى البصرة، فقطعت خطبته، وخطب لابن أخيه الملك أبي كاليجار بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة في شوال ـ وهو حينئذٍ صاحب خوزستان ـ والحرب بينه وبين عمه أبي الفوارس ـ صاحب كرمان ـ بفارس، فلما سمع جلال الدولة بذلك، أصعد إلى بغداد، فانحدر عسكرها ليردّوه عنها، فلقوه بالسيب من أعمال النهروان، فردّوه فلم يرجع، فرموه بالنشاب، ونهبوا بعض خزائنه، فعاد إلى البصرة، وأرسلوا إلى الملك أبي كاليجار ليصعد إلى بغداد ليملكوه، فوعدهم الإصعاد، ولم يمكنه لأجل صاحب كرمان، ولما أصعد جلال الدولة، كان وزيره أبا سعد بن ماكولا[٢].

ذكر ملك نصر الدولة بن مروان مدينة الرها

وفي هذه السنة ملك نصر الدولة بن مروان ـ صاحب ديار بكر ـ مدينة الرها ـ وكان سبب ملكها: أنّ الرها كانت لرجل من بني نمير، يسمى: عطيراً ـ وفيه شر وجهل.

---

(١) ذكره ابن الجوزي في «المنتظم» (١٥/ ١٧٠)، وذكره النويري في «نهاية الأرب» (٢٦/ ٢٥٠)، وذكره أبو الفداء في «المختصر في أخبار البشر» (٢/ ١٥٥)، وذكره الذهبي في «تاريخ الإسلام» (حوادث سنة: ٤١٦ هـ) (٢٥٥)، وذكره أيضاً في «دول الإسلام» (١/ ٢٤٧)، وذكره أيضاً في «العِبَر في خبر من غبر» (٣/ ١٢١)، وذكره ابن الوردي في «تاريخه» (١/ ٣٢٦).

(٢) ذكره ابن الجوزي في «المنتظم» (١٥/ ١٧٠)، وذكره أبو الفداء في «المختصر في أخبار البشر» (٢/ ١٥٥)، وذكره النويري في «نهاية الأرب» (٢٦/ ٢٥٠، ٢٥١)، وذكره الذهبي في «تاريخ الإسلام» (حوادث سنة: ٤١٦ هـ) (٢٥٥).

واستخلف عليها نائباً له، اسمه: أحمد بن محمد، فأحسن السيرة، وعدل في الرعية، فمالوا إليه.

وكان عطير يقيم بحلّته، ويدخل البلد في الأوقات المتفرّقة، فرأى أن نائبه يحكم في البلد، ويأمر وينهى، فحسده، فقال له يوماً: قد أكلت مالي، واستوليت على بلدي، وصرت الأمير وأنا النائب، فاعتذر إليه، فلم يقبل عذره وقتله، فأنكرت الرعية قتله، وغضبوا على عطير، وكاتبوا نصر الدولة بن مروان ليسلموا إليه البلد، فسيَّر إليهم نائباً كان له بآمد، يسمى: زنك، فتسلّمها وأقام بها ومعه جماعة من الأجناد[1].

ومضى عطير إلى صالح بن مرداس، وسأله الشفاعة له إلى نصر الدولة، فشفع فيه، فأعطاه نصف البلد، ودخل عطير إلى نصر الدولة بميافارقين، فأشار أصحاب نصر الدولة بقبضه، فلم يفعل وقال: لا أغدر به وإن كان أفسد، وأرجو أن أكفّ شره بالوفاء، وتسلّم عطير نصف البلد ظاهراً وباطناً، وأقام فيه مع نائب نصر الدولة.

ثم إن نائب نصر الدولة عمل طعاماً ودعاه، فأكل وشرب، واستدعى ولداً كان لأحمد الذي قتله عطير، وقال: تريد أن تأخذ بثأر أبيك؟ قال: نعم! قال: هذا عطير عندي في نفر يسير، فإذا خرج فتعلّق به في السوق.

وقل له: يا ظالم قتلت أبي، فإنّه سيجرّد سيفه عليك، فإذا فعل، فاستنفر الناس عليه، واقتله، وأنا من ورائك، ففعل ما أمره، وقتل عطيراً، ومعه ثلاثة نفر من العرب، فاجتمع بنو نمير وقالوا: هذا فعل زنك، ولا ينبغي لنا أن نسكت عن ثأرنا، ولئن لم نقتله ليخرجنا من بلادنا، فاجتمعت نمير، وكمنوا له بظاهر البلد كميناً.

ج٧/٣٢٢/ط وقصد فريق منهم البلد، فأغاروا/ على ما يقاربه، فسمع زنك الخبر، فخرج فيمن عنده من العساكر، وطلب القوم، فلما جاوز الكمناء، خرجوا عليه فقاتلهم، فأصابه حجر مقلاع، فسقط وقتل، وكان قتله سنة ثمان عشرة وأربعمائة في أوّلها، وخلصت المدينة لنصر الدولة.

ثم إن صالح بن مرداس شفع في ابن عطير وابن شبل النميريين ليرد الرها إليهما، فشفعه وسلّمها إليهما، وكان فيها برجان، أحدهما أكبر من الآخر، فأخذ ابن عطير البرج الكبير، وأخذ ابن شبل البرج الصغير، وأقاما في البلد إلى أن باعه ابن عطير من الروم[2]،

(١) ذكره ابن خلدون في «تاريخه» (٤/ ٣٨٠).

(٢) ذكره ابن خلدون في «تاريخه» (٤/ ٣٨١).

على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر غرق الأسطول بجزيرة صقلية

في هذه السنة خرج الروم إلى جزيرة صقلية في جمع كثير، وملكوا ما كان للمسلمين في جزيرة قلورية ـ وهي مجاورة لجزيرة صقلية ـ وشرعوا في بناء المساكن، ينتظرون وصول مراكبهم وجموعهم مع ابن أخت الملك، فبلغ ذلك المعز بن باديس، فجهّز أسطولاً كبيراً ـ أربعمائة قطعة ـ وحشد فيها، وجمع خلقاً كثيراً، وتطوّع جمع كثير بالجهاد، رغبة في الأجر، فسار الأسطول في كانون الثاني، فلما قرب من جزيرة قوصرة، وهي قريب من بر أفريقية خرج عليهم ريح شديدة، ونوء عظيم، فغرق أكثرهم، ولم ينج إلا اليسير.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة ظهر أمر العيارين ببغداد، وعظم شرّهم، فقتلوا النفوس، ونهبوا الأموال، وفعلوا ما أرادوا، وأحرقوا الكرخ، وغلا السعر بها حتى بيع الكر الحنطة بمائتي دينار قاسانية[1].

وفيها قبض جلال الدولة على وزيره أبي سعد بن ماكولا، واستوزر ابن عمه أبي علي بن ماكولا[2].

وفيها أرسل القادر بالله القاضي أبا جعفر السمناني إلى قرواش، يأمره بإبعاد الوزير أبي القاسم المغربي ـ وكان عنده ـ فأبعده، فقصد نصر الدولة بن مروان بميافارقين، وقد تقدم السبب فيه.

---

(١) ذكره ابن الجوزي في «المنتظم» (١٥/ ١٧١)، وذكره الذهبي في «تاريخ الإسلام» (حوادث سنة: ٤١٦ هـ) (٢٥٥)، وذكره أيضاً في «دول الإسلام» (١/ ٢٤٧)، وذكره أيضاً في «العِبَر في خبر من غبر» (٣/ ١٢١)، وذكره اليافعي في «مرآة الجنان» (٣/ ٢٩)، وذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٢/ ٤٥٨)، وذكره القلقشندي في «مآثر الإنافة» (١/ ٣٢٠).

(٢) ذكره ابن الجوزي في «المنتظم» (١٥/ ١٧٠)، وذكره الذهبي في «تاريخ الإسلام» (حوادث سنة: ٤١٦ هـ) (٢٥٦)، وذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٢/ ٤٥٨).

الوفيات

وفيها توفي الوزير أبو منصور محمد بن الحسن بن صالحان، وزير مشرف الدولة أبي الفوارس، وعمره ست وسبعون سنة، وقاضي القضاة أبو الحسن أحمد بن محمد بن أبي الشوارب، ومولده في ذي القعدة سنة تسع عشرة وثلثمائة، وكان عفيفاً، نزهاً[١].

وقيل: توفي سنة سبع عشرة، وبسيل ملك الروم، وملك بعده أخوه قسطنطين[٢].

وفيها ورد رسول محمود بن سبكتكين إلى القادر بالله، ومعه خلع قد سيَّرها له الظاهر لإعزاز دين الله العلوي صاحب مصر، ويقول: أنا الخادم الذي أرى الطاعة فرضاً، ويذكر إرسال/ هذه الخلع إليه، وأنه سيَّرها إلى الديوان ليرسم فيها بما يرى، فأحرقت على باب النوبي، فخرج منها ذهب كثير، تصدق به على ضعفاء بني هاشم[٣]. ج٧/٣٢٣/ط

وفيها توفي سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة، وكان كاتباً سديداً، وعمل دار الكتب ببغداد سنة إحدى وثمانين وثلثمائة، وجعل فيها أكثر من عشرة آلاف مجلّد، وبقيت إلى أن احترقت عند مجيء طغرلبك إلى بغداد سنة خمسين وأربعمائة[٤].

وفيها توفي عثمان الخركوشي، الواعظ النيسابوري، وكان صالحاً، خيِّراً، وكان إذا دخل على محمود بن سبكتكين يقوم ويلتقيه، وكان محمود قد قسّط على نيسابور مالاً يأخذه منهم، فقال له الخركوشي: بلغني أنّك تكدّي الناس، وضاق صدري، فقال: وكيف؟ قال: بلغني أنك تأخذ أموال الضعفاء ـ وهذه كدية ـ فترك القسط وأطلقه[٥].

وفيها بطل الحج من العراق وخراسان[٦]/. ج٧/٣٢٤/ط

(١) ذكره ابن الجوزي في «المنتظم» (١٥/ ١٧٦).
(٢) ذكره ابن الوردي في «تاريخه» (١/ ٣٢٦).
(٣) ذكره ابن الجوزي في «المنتظم» (١٥/ ١٧١)، وذكره الذهبي في «تاريخ الإسلام» (حوادث سنة: ٤١٦ هـ) (٢٥٦).
(٤) ذكره ابن الجوزي في «المنتظم» (١٥/ ١٧٢)، وذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٢/ ٤٥٨).
(٥) ذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٢/ ٤٥٩)، وذكره ابن الجوزي في «المنتظم» (١٢/ ١٧٢، ١٧٣)، وذكره الذهبي في «تاريخ الإسلام» (حوادث سنة: ٤١٦ هـ) (٢٥٧)، وذكره اليافعي في «مرآة الجنان» (٣/ ٢٩).
(٦) ذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٢/ ٤٥٨).